تعريف بكتاب: الحرم المكّي.... (٢)

تأليف: أ. د. عبد الملك بن دهيش
تقديم وتعريف: محسن الأسدي

الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به

بعد أن انتهينا من القسم الأوّل لتعريف هذا الكتاب القيّم والذي بـه انـتهى الفصل الأوّل من الباب الأوّل للكتاب المذكور، وقد تحدث فيه المؤلف عن تاريخ أعلام الحرم المكّي الشريف، منهياً ذلك بجدول يضمّ مجددي أعلام الحرم مرتّبين حسب تاريخ التجديد، وقد قسّم جدوله هذا بالشكل الآتي:

اسم مجدد الأعلام، من قام بالتجديد، سنة التجديد، الأعلام التي تمّ تجديدها مبتدئاً جدوله هذا بنبيّ الله إسماعيل عليه السلام، مروراً بعدنان بن أدد، وقصي بن كلاب، ثمّ قريش، فرسول الله صلى الله عليه وآله ذاكراً الخلفاء والأمراء... حتى يصل إلى العصر الحالي، فيختم جدوله المذكور بالملك فهد بن عبدالعزيز سنة ١٤٠٧هـ. كلّ هذا ذكره المؤلف قبل أن ينتقل إلى الفصل الثاني من الباب نفسه، لننتقل معه إلى تعريفنا وقراءتنا، ولو بشكل مختصر جدّاً، للفصل الثاني وللآتي بعده حتى النهاية.

الفصل الثاني

جهود المؤرخين المكّيين في ضبط مواضع حدود الحرم الشريف.

وقد ابتدأ المؤلف بعد العنوان بعنوان صغير «جهود الإماميين الأزرقي والفاكهي»

ومن المعروف أنّ «أخبار مكة» للأزرقي، و «أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه» للفاكهي، يعدّان من أقدم ما وصلنا من دراسات تأريخية عن الحرم المكّي الشريف.

فقد عاش كلا المؤلفين في قرن واحد، وإن توفّي الأزرقي قبل الفاكهي بعشرين سنة. وقد قام المؤلف الأزرقي بتحقيق كتاب الفاكهي وطبع في خمسة مجلدات، فيما السادس وضع للملاحق والفهارس، وبسبب أنّهما أُولّفا في قرن واحد، فقد تشابهت أبحاثهما، ونظراً لعدم وصول غيرهما، فقد عدّهما المؤلف أبحاثاً، وإلّا فهي مجرّد إشارات كما يذهب إلى ذلك المؤلف نفسه.

ثم راح المؤلف ابن دهيش يذكر مواضع الأعلام، التي ذكرها كلّ من الأزرقي والفاكهي، وهي وإن كانت قليلة، إلّا أنّها كانت موضع اتفاق بينهما وموضع فائدة للمؤلف الدكتور في كتابه هذا.

١ ـ جبل نمرة، وسمّاه الأزرقي (ذات السليم) وكذا الفاكهي، وقد تفرّد الأخير بأن ذكر أنّ عليه أعلام الحرم دون الأزرقي.

٢ ـ طريق الطائف القديم المارّ على عرفة، وقال عنه الفاكهي: (ومن طريق الطائف على عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً).

٣ ـ جبل المقطع، وهو منتهى الحرم من طريق العراق.

٤ ـ ثنية خلّ، بطرف المقطع، منتهى الحرم من طريق العراق.

٥ ـ جبل الستار (ستار لحيان)، وسمّي بالستار؛ لأنّه ستر بين الحلّ والحرم.

٦ ـ ثنية المستوفرة وهي ثنية على حائط ثرير، وعلى رأسها أنصاب الحرم، فما سال على ثرير حلّ، وما سال منها على الشعب فهو حرام.

٧ ـ ثنية ذات الحنظل، أنصاب على رأس الثنية، وجهها حرم، ظهرها حلّ.

٨ ـ التخابر والأعشاش، بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم...

٩ ـ بشائم، وهي ردهة تمسك الماء، فيما بين أضاة لبن، بعضها في الحل، وبعضها في الحرم.

١٠ ـ ثنية لبن، وهي على سبعة أميال من طريق اليمن.

١١ ـ جبل نعيلة، (كبش: الجبل الذي دون نعيلة في طرف الحرم).

١٢ ـ جبل غراب، بأسفل مكّة بعضه في الحلّ وبعضه في الحرم.

١٣ ـ الضحاضح، ثنية ابن كرز من وراء السلفين، تصبّ في النبعة، بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم.

ثمّ ذكر كل من الأزرقي والفاكهي الأودية، وإن اختلفا في مصبها فالفاكهي ذهب إلى أنّها تسكب من الحلّ في أرض الحرم، فيما قرّر الأزرقي أنّ أودية الحرم تسكب في الحلّ إلّا من التنعيم، وبعد تتبع توصل الفاكهي إلى خلاف ما ذهب إليه الأزرقي ثم ذكر تلك المواضع. وقد نال ما ذهب إليه الفاكهي قبول الدكتور ابن دهيش بعد تقصيّه لما قاله، مخطئاً ما رآه الأزرقي.

ثم انتقل إلى مداخل مكّة الستة التي ذكرها الأزرقي والفاكهي، وأبعادها، وعليها أعلام الحرم، من طريق المدينة، واليمن، وجدة والطائف، والعراق، والجعرانة.

بعد هذا انتقل المؤلف إلى ما ذكره محبّ الدين الطبري، وهكذا جهود الإمام تقي الدين الفاسي وضبطها لمواضع من حدود الحرم، وهنا يمكن طرح سؤالين:

الأول: هل للقبائل دور في تحديد أعلام الحرم ومواقعها؟

الثاني: ما هو سبب التعرجات في الحرم؟

ويجيب عنهما المؤلف:

بإنّ حرمة مكّة المكرمة كانت يوم خلق السموات والأرض، وأعلام الحرم وجدت في عهد إبراهيم، وهو أوّل من علم مواضعها بدلالة جبريل عليه السلام.

وليس للقبائل دور فيها، فهي لم تسكن الحرم والأماكن الواقعة على حدوده إلّا بعد وضع أعلام الحرم بزمن طويل. إذ هي قبائل رُحَّل، ولا علاقة لها بتحديد الحدود، نعم كان لها دور في تجديد هذه الأعلام وترميمها. هذا جواب السؤال الأوّل.

وأمّا الجواب عن السؤال الثاني، فإنّ المداخل التي تحدق بها الجبال الشامخة وتضيق مداخلها، يكون حدّها قريباً إلى الكعبة مثل التنعيم فهي منطقة أكثر جبالها متصلة بعضها ببعض وشاهقة في الارتفاع فهي أقرب المداخل ولا يزيد اتساعه عن ٩٠٠ م، فيما تكون منطقة الأعشاش الواقعة على طريق جدّة وتُسمى بالحديبية أو الشميسي أبعد حدود الحرم من الكعبة. فالحد يبعد فيها عن الكعبة بحوالى عشرين كيلومتراً، ... وهكذا فكلّما ضاق المدخل قرب الحدّ، وكلّما اتسع المدخل بعد الحد تمشياً مع مظاهر السطح. هذا وأنّ حدود الحرم توقيفية، والأمر فيها لله تعالى وحده وليس للاجتهاد نصيب فيه.

هذا وقد سكنت القبائل بالقرب من حدود الحرم:

الحدّ الشرقي: مساكن قبائل قريش.

الحدّ الغربي: مساكن قبائل لحيان.

الحدّ الشمالي: مساكن قبائل لحيان، ونزلت عليهم في بعض المواقع الآن قبائل حرب.

الحدّ الجنوبي: مساكن قبائل خزاعة.

واستفيد من هذه القبائل في إعادة بناء وترميم وتجديد أعلام الحرم الواقعة في جهتها؛ لسابق معرفتهم بوضع الأعلام وأماكنها.

ومن واقع دراسته الميدانية تبيّن للدكتور ابن دهيش أنّ الأعلام المحيطة بالحرم تبلغ ٩٣٤ علماً على مداخل مكّة أو على جبالها، فهي تحيط بالحرم المكّي إحاطة تامّة، أقامها أسلافنا على هذه الجبال، أكثر من ثلثها كان مبنياً قائماً، وبعضها الآخر كان متهدماً، وأثر النورة لاصق بأحجارها أو يتخللها.

وأنّ دائرة الحرم (١٢٧كم) بدءاً بقرن الأعفر الواقع في أوّل الحدّ الشرقي من ناحية الجنوب، وانتهاءً به.

وكان قياسه لمسافة الحرم من واقع الخرائط الجويّة فوجدها خمسمائة وخمسين كيلومتراً وثلاثمائة متر مربع.

ثم ذكر المؤلف المسافات على الطرق القديمة، مبتدئاً من جدار المسجد الحرام حتى أعلام كلّ منطقة في مداخل مكة. ثم ذكر المسافات من جدار المسجد الحرام حتى أعلام كل منطقة على الطرق الحديثة لمداخل مكّة المكرمة.

وقبل أن يدخل المؤلف في تفاصيل مواضع حدود الحرم، نبّه إلى أمور يرى من الضروري معرفتها قبل الخوض في البحث الميداني لتلك المواضع، مبيّناً فيها أنّ للحدود المذكورة في هذا الباب الثاني من بحثه مسميات قديمة احتفظت بأسمائها القديمة إلى الآن، وهناك مسميات قديمة، تغيّر اسمها قليلاً مثل (يأجج) تُسمى الآن (ياج)، فيما هناك أسماء حديثة ذكرتها الخرائط الجويّة لمكّة المكرمة لم يقف المؤلف على مسمياتها القديمة، وأيضاً ذكر المؤلف أنّ هناك مواضع ليس لها ذكر في الكتب ولا في الخرائط وهي مشهورة بأسمائها عند القاطنين بها أو حواليها. هذا بالنسبة للأسماء وما يتعلّق بها.

وأما بالنسبة للمسافات فكانت مقاساتها التي دوّنها تقريبية، بسبب وعورة الجبال والارتفاع والانخفاض ولانهدام غالبية الأعلام... وهذا لا ينطبق على الأعلام المهمة؛ لأنّها ما زالت قائمة ولسهولة طبيعة العمل فيها.

وأمّا بالنسبة إلى صور الأعلام فلكثرتها، وضع كلّ صورة في المكان الذي له إحالة عليها في ثنايا البحث. إضافةً إلى أنّه وضع ملحقاً للخرائط مبيناً فيها مواضع الأعلام على كل جبل أو ثنية أو سهل...[1]

(١) انظر هذا في ص ١٢٤ ـ ١٢٥ من الكتاب المذكور.

ثم ذكر بعد هذا القواعد العامّة في تحديد حدود الحرم المكّي الأربعة، موضحاً المقصد (بالأعلام) وأنّها علامات وضعت على جهاته الأربع، وأنّها أُمور توقيفية لم ينقل أنّ أحداً أخّرها أو قدّمها، وكل عملهم كان ينصبّ على تحديدها... ذاكراً في صفحات بحثه هذا الضابط في وضع الأعلام، وهو أن يكون تابعاً لاتجاه سيل هذه الجبال والثنايا، فتوضع الأعلام في النقطة القاسمة بين سيل الجبل والثنية يميناً ويساراً، إلّا في مواضع ذكرها العلماء... وذاكراً المسار الحقيقي لكلّ حدٍّ من الحدود الأربعة عبر ما يتضمنه كلّ حدٍّ من جبال وطرق وثنايا ابتداءً وانتهاءً...[1] تمهيداً لتفصيل الحديث عنها في الفصل الأوّل من الباب الثاني.

الباب الثاني: مواضع حدود الحرم المكّي الشريف

وفي الباب المذكور، بدأ المؤلف رحلته الميدانية مستفتحاً جهوده بـ(جبل قرن الأعفر) وخاتماً به رحلته، ليشكّل بهذا رحلة دائرية إن صحّ التعبير، مدوّناً كلّ ما حصل عليه في فصول أربعة يتضمنها هذا الباب.

الفصل الأوّل:

في هذا ـ وكما قلنا ـ راح المؤلف يشرح بشكل مفصل في المتن وفي الهامش كلّ ما يتعلّق بأعلام الحدّ الشرقي حيث إنّ الحدّ الشرقي يبدأ جنوباً بـ(جبل قرن الأعفر) وعدد أعلامه ٣ مروراً بجبل عارض الحصن وعدد أعلامه ١٣، فجبل الخطم وعدد أعلامه ٣، فجبل الصفيراء وعدد أعلامه ٥، فجبل الستار (ستار قريش) وعدد أعلامه ٤، وجبل سُتيِّر وعدد أعلامه ٧، وجبل أسلع، وشرفة أسلع وعدد أعلامه ٣ وجبل الطارقي (ثبير الأعرج) وعدد أعلامه ٢١، وثنية خلّ وجبل المقطع وعدد أعلامه ٢، وجبل الستار (ستار لحيان) وعدد أعلامه ٧،

(١) انظر هذا و تفصيله في ص: ١٢٦ ـ ١٢٩ من الكتاب نفسه.

وثنية المستوفرة وعدد أعلامه ٢، وينتهي بـ(ريع النقواء) والذي يحمل ٣٦ علماً.

وليوضح المؤلف هذا الحدّ مساراً وجبالاً وأوديةً وسهولاً وثنايا وأعلاماً فقد هيّأ له ستة عشر مبحثاً، فيها تفاصيل دقيقة وواسعة، وقد توفّر هذا الحدّ على (١١٠) أعلام، الكثير منها مبنيّ بالنورة[1].

الفصل الثاني:

وفي هذا الفصل، تناول الحدّ الشمالي، بداية هذا الحدّ غرباً بـ(ثنية النقواء) وبعد أن يمرّ بجبل أم السَّلم وأعلامها ١٦ علماً، وجبل بُغبغة وأعلامها ٢٥، وجبل ياج (يأجج) وأعلامه ٢٠، وجبل شرفة ياج وأعلامه ٢٠ أيضاً، وجبل حجلى وأعلامه ٢٣، وجبل أبو حيّة وأعلامه ٣٣، وجبل الوقير (أبويسر) وأعلامه ٤٧، وجبل صايف وأعلامه ١٤، وجبل نعمان (جبل العمرة) وأعلامه ١٦، ووداي التنعيم وأعلامه ٤، وجبل نعيم وأعلامه ١٥، وجبل الواتد أو (الجفر) وأعلامه ٢٩، وبعد شرفة اللفيفاء، جبل رحا وعدد أعلامه التي عثر عليها المؤلف ٤٧ علماً... ثمّ يصل الى ثنية ذات الحنظل (ريع رحا) ثمّ جبل الرضيع وأعلامه ٤٨، وجبل أم القزاز وأعلامه ٧١، وجبل أم الشبرم وأعلامه ٥١، وجبل المرير (ام المرخ) وأعلامه ٤٠، وجبل أبو بقر (وادي الجوف) وأعلامه ٤٢، ونهاية هذا الحدّ بـ(جبل الناصرية) وفي هذا الفصل اثنان وعشرون مبحثاً توضح هذا الحدّ مساراً وجبالاً وأوديةً وسهولاً وثنايا وأعلاماً...

وكما يقول المؤلف: إنّ هذا الحدّ نال من عناية المجدّدين السابقين أكثر ممّا ناله غيره من الحدود الثلاثة من حيث كثرة أعلامه أوّلاً، ومن حيث إنّ هذه الأعلام بُنيت بالحجر المنحوت والنورة البيضاء ثانياً، منتهياً من بحثه هذا إلى أنّ جملة أعلام الحدّ الشمالي هذا هي (٥٧٤) علماً، فيما مجموعها في الفهرس ص ٥٣٠

(١) انظر الصفحات من ١٣٣ ـ ١٦٣.

كان ٥٨٣ علماً كلّها بُنيت بالنورة، إلّا القليل النادر منها لم يجد المؤلف عليه آثار النورة...[١].

الفصل الثالث:

ذكر فيه أعلام الحدّ الغربي، ويبدأ هذا الحد بـ(أعلام الأعشاش وعددها ٥ أعلام) من الناحية الشمالية الغربية بزاوية، مروراً بجبل أظلم، وعدد أعلامه ٢٠، فجبل النغيرات، أو الحشفان وأعلامه ٢٧، فأرض الرصيفة وعدد أعلامها ١٧، وينتهي بجبل (الدومة السوداء)، وعدد أعلامه ٢٧، مشتملاً هذا الفصل على خمسة مباحث توضّح مسار هذا الحدّ وجباله وأوديته وسهوله وثناياه... منتهياً إلى أنّ جملة أعلام هذا الحدّ (٩٨ علماً)، بعضها مبنيّ بالنورة فيما البعض الآخر رضوم[٢].

الفصل الرابع:

وتناول المؤلف فيه الحدّ الجنوبي، الذي يبدأ بـ(جبل نعيلة الغربي) وأعلامه ١٣، من الناحية الجنوبية الغربية مروراً بجبل الدومة الحمراء وأعلامه ١٠ في المسار الأوّل، و ١٩ في المسار الثاني... فجبل بشيم (البشيمات) وأعلامه ٤، فريع السيّد وجبل الخشن الأوسط وأعلامه ١١ ثم جبل (أبو الصواعق) وأعلامه ١٢، فجبل لبن وجبل (لُبين) وأعلامه ٢٣، فالبيبان (ثنية لبن) وأعلامه ٢، فجبل نعيلة الشرقي وأعلامه ١٨ فجبل غراب وأعلامه ٥، فجبل مبعّر (الخاصرة) وأعلامه ٨، فريع مهجرة (ثنية ابن كرز) (ريع مبعّر) وأعلامه ٤، فجبل المظالف وأعلامه ٨، فجبل الصويفة (جبل أبو عشاش) وأعلامه ٧، فجبل صيفة ـ(جبل

(١) انظر الصفحات ١٦٥ ـ ٢٦٠.

(٢) انظر الصفحات ٢٦١ ـ ٢٨٨.

الأحمر) وأعلامه ٢٤، ولكن بنهاية العلم الثالث والعشرين ينتهي الحدّ الجنوبي، حيث انتهت أعلامه ـ كما يقول المؤلف ـ وبعده يتّجه شمالاً باتجاه (قرن الأعفر) الذي بدأنا ذكر الحدّ منه (أي الحدّ الشرقي من ناحية الجنوب) وقبل هذا القرن يوجد العلم الأخير لهذا الحد الجنوبي وهو الرابع والعشرون....، حيث تنتهي أعلام هذا الحدّ بنهاية جبل صفيه، وبهذا ينتهي هذا الفصل عبر أربعة عشر مبحثاً، وجملة أعلام هذا الحدّ (١٥٢ علماً) إلّا أنّ مجموعها في الفهرس ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ كان ١٦٨ علماً، منتهياً بدراسته وبحثه هذا بقرن الأعفر وهو القرن الذي بدأ منه أوّل مرّة في بحثه الميداني هذا في أعلام الحدّ الشرقي، وبهذا يكون المؤلف ـ وكما يقول ـ قد دُرنا دورة كاملة تبلغ مئة وسبعة وعشرين كيلومتراً، محيطة بمواضع حدود الحرم[1].

وبهذا الفصل من الباب ينتهي الباب الثاني وبانتهائه يتمّ البحث الميداني القيّم هذا؛ لننتهي بعد ذلك إلى الخاتمة والنتائج.

▣ الخاتمة والنتائج:

لقد خصّص المؤلف الكريم عدّة صفحات من كتابه هذا (٣٥٣ ـ ٢٦٣) ذاكراً فيها أهم ما توصل اليه من نتائج لرحلته الطويلة حول حدود الحرم الشريف، وللأبحاث التي عرضها في كتابه عن أعلام الحرم وتأريخها.

لنبدأ معه في نتائجه هذه، حتى نصل إلى فقرة أخرى ذكرها أيضاً في آخر هذا الفصل وهي الاقتراحات:

● أمّا أهم نتائجه، التي تمدّدت على الصفحات ٣٥٣ ـ ٣٥٩، عبر ١٥ فقرة فهي:

١) أنّ دراسته هذه تعدّ أوّل تقييد وتدوين شامل لمواضع الحرم وأعلامه،

(١) انظر الصفحات ٢٨٩ - ٣٥٠.

فإنّ عِلْمَ (حدود الحرم الشريف) ـ والكلام للمؤلف ـ من العلوم، التي لم تكتب كتابة مستقلة، ولم تدوّن منذ أوّل وجودها على الأرض تدويناً قائماً بذاته، إلى يوم الناس هذا، فقد كان هذا العلم يؤخذ مشافهةً من أصحابه إذا احتيج إليه... ولهذا بقي غالب هذا العلم في صدور الرجال حتى الساعة[1].

ومن هذا نالت هذه الدراسة القيّمة أهمية كبيرة وهو ما ذكرناه عنها في القسم الأوّل من تعريفنا لهذا الكتاب.

٢) حدود الحرم هي المداخل المؤدية إلى مكّة، لا التي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم، وهذه المداخل هي التي يريدها مؤرخو مكّة وغيرهم، وكانوا يطلقونها على مواضع حدّ الحرم على الطرق المؤدية إلى مكّة، وكان عددها ستة مداخل، كما في زمن الأزرقي والفاكهي، واختفى منها اثنان في عهد الفاسي، وبها انحصر علم حدود الحرم.

٣) تحديد حدود الحرم ووجود الأعلام، إنّما هو أمر توقيفي وضعها إبراهيم عليه السلام بدلالة جبريل عليه السلام ولا اجتهاد فيه.

والذين جدّدوا هذه الأعلام، لم يكن عملهم يتجاوز ذلك التجديد إلى تقديم مواضعها أو تأخيرها.

٤) تجديد الأعلام والعناية بها، كان يعدّ من أعظم المهمّات وأشرفها، وما إن وطأت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض مكّة فاتحاً لها، حتى أمر أصحابه بتجديد الأعلام، على ضيق وقته الذي قضاه في مكّة وكثرة مشاغله ومسؤولياته، وعلى هذا سار غيره من الذين جاؤوا من بعده صلى الله عليه وسلم.

٥) منذ اثني عشر قرناً ونصف، لم تجدّد أعلام الحرم الواقعة على الجبال، أي منذ سنة ١٦٠ هـ، في عهد الخليفة المهدي العباسي.

---

(١) أُنظر الصفحة ٣٥٣.

٦) وهي نتيجة مهمة جدّاً، توصّل إليها الدكتور في رحلته العلمية النافعة هذه، هي حصيلة الأعلام، وهي كالآتي: (٩٣٤) علماً، وقف عليها ووصفها وصوّرها. بقي منها: ثلاثة عشر علماً موجودة على مداخل مكّة، والفضل في بقائها يعود إلى المصلحين والمجدّدين.

واثنان لازالا بقدرة الله قائمين على رؤوس الجبال.

ويوجد (٦٣٠) علماً من مجموع ٩١٩ علماً متهدماً من زمن بعيد على رؤوس جبال يرتفع بعضها ٥٠٠م فوق سطح البحر، عليها آثار النورة البيضاء القديمة، أمّا بقية الأعلام وعددها (٢٨٩) فهي عبارة عن رضوم متهدمة.

٧) حدّ الحرم يسير على خمسة وأربعين جبلاً، صغيراً وكبيراً، تكاد تحيط بمكّة إحاطة تامّة ليست بينها فواصل سهيلة طويلة إلّا قليلاً.

٨) «١٦» ثنية وشرفة يمرّ بها حدّ الحرم، وعليها طرق سالكة للسيارات.

٩) «٨» فواصل سهيلة بين جبال الحدّ، أكثرها لا يزيد عن كيلومترين.

١٠) ننقل هذه الفقرة كما ذكرها المؤلف: «من عادة المجدّدين القدماء «رحمهم الله» أن يضعوا الأعلام على الجبال والثنايا، والمرتفعات الأخرى، أي على موضع واضح مرتفع، ولم يكن من عادتهم وضع الأعلام في الأرض السهلة الخالية من المرتفعات؛ لأنّ هذه الأراضي السهلة (الثمانية) غالبها أرض رملية، ولا تحفظ ما يُرضم أو يبنى عليها من الأعلام، ولذلك تراهم يُهملون الأراضي الواطئة والسهلة من وضع الأعلام فيها».

هذا ما أراده المؤلف في الفقرة العاشرة، إلّا أنّ كلامه فيها استوقفني، فقد رأيت فيه تهافتاً واضحاً أو اختلافاً عمّا ذكره بخصوص الأعلام، فإضافة إلى كونه:

أوّلاً: ذكر علّة وضع الأعلام على الجبال والمرتفعات والثنايا دون الأراضي السهلة...، وكأنّها هي العلّة الحقيقية لا غيرها.

ونقول: ذكر في عدّة مواضع من كتابه هذا، كان آخرها الفقرة ٣ في الصفحة ٣٥٣، قال فيها:

«إنّ تحديد حدود الحرم أمر توقيفي، لا مجال فيه للاجتهاد، فوجود الأعلام على الجبال، إنّما كان من وضع نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بدلالة جبريل عليه السلام...».

فهنا يتّضح لنا جليّاً أنّ الأعلام أمر توقيفي، والأمر التوقيفي لا يمكننا الجزم بعلته، ولكن يمكننا أن نضعها تحت دائرة الاحتمال دون القطع.

ثانياً: ذكر في هذه الفقرة (١٠) «من عادة المجدّدين القدماء «رحمهم الله» أن يضعوا الأعلام على الجبال والثنايا والمرتفعات...».

ونقول: وقد أسند فيها وضع الأعلام إلى المجدّدين القدماء، في حين قال في أكثر من مكان منها في القول ٣ صفحة ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ـ، «إنّ تحديد حدود الحرم أمر توقيفي لا مجال فيه للاجتهاد [بمعنى أمر السماء الذي لا دخل للإنسان فيه] فوجود الأعلام على الجبال، إنّما كان من وضع إبراهيم عليه السلام بدلالة جبريل عليه السلام».

وقال في الصفحة ٢٩٢ قولاً جميلاً: لو ترك مثل هذا الأمر للاجتهاد؛ لتغيّر اجتهاد اللّاحقين عن اجتهاد السابقين، وبالتالي تغيّرت حدود حرم الله وانهارت الحرمة والقدسية لهذه الحدود التوقيفية، وبالتالي صار الأمر لعبة بيد الذين قد يسخرون بعض الاجتهاد لصالحهم... ونتّبع خطّ الحدّ حيث كان، قرب أو بعد من الحرم، سار بخط مستقيم أو بخط مائل...، فإنّما نتبع الحدّ، ونضع الأعلام على مواضع الأعلام، والأمر في هذا لله وحده، وليس للاجتهاد فيه نصيب...

اللّهمّ إلّا أن يريد بقوله «من عادة المجدّدين القدماء أن يضعوا الأعلام على الجبال والثنايا والمرتفعات الاخرى... هم أولئك الذين ذكرهم في الفقرة ١١ و ١٢ وهم «المهندسون لأعلام الحرم»، كما سمّاهم الذين من ضمن مافعلوه، ليضمنوا لمن بعدهم صحة المسار... أنّهم زادوا من عدد الأعلام على الجبل الواحد... وما فعله الأسلاف... وكان الأولى ـ دفعاً للالتباس ـ أن يسمّي ما فعلوه بالعلامات مثلاً لا

بالأعلام، التي هي ٩٣٤ علماً وضعها نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، حتى صارت خاصة بها. أو أنّه أراد بتعبيره شيئاً آخر غاب عن ذهني... قد يكتشفه القارئ الكريم.

١١) إنّ مسار الأعلام على الجبال مسارٌ واضح في أغلب مواضعه، لا يشتبه أمره على الباحث المتتبع... لأنّ أسلافنا ـ كما يقول المؤلف ـ لم يتركوا طريقة علمية ناجحة في توضيح مسار الحدّ إلّا فعلوها. وبهذا نستطيع أن نقول ـ وما زال القول للمؤلف ـ: إنّ الباحث عن حدود الحرم، قد لا يحتاج إلى من يدلّه عليها إذا سار بنفسه، فدليله هي آثار هذه الأعلام الكثيرة، وهي أحسن وأصدق من كثير من الأدلاء.

١٢) أغلب هذه الجبال، وعددها (٤٥) جبلاً تكون طويلة، والضابط الذي على ضوئه توضع الأعلام على الجبال هو اتجاه السيل في هذه الجبال؛ لأنّ كل جبل إذا تساقط عليه المطر بغزارة سال منه الماء بعدة اتجاهات، وقد وضعت عليها الأعلام، من قبل المختصّين ومن لهم خبرة بذلك، وما وضعت ـ كما يقول المؤلف ـ إلّا لتضبط اتجاه السيل، وبالتالي يستطيع الباحث بنفسه أن يخمّن مواضع الأعلام، وقلّما يخونه هذا التخمين.

١٣) اشتهر عند بعضهم أنّ سيل الحرم كلّه يخرج إلى الحلّ، وسيل الحلّ لا يدخل الحرم، إلّا من موضع واحد عند التنعيم، وعن هذا يقول المؤرخ ابن دهيش: وهذه المقولة معترضة ومنقوضة بما قرره الفاكهي حيث أفرد مبحثاً عن (أودية الحلّ التي تسكب في الحرم) وذكر فيه عدّة مواضع. حيث إنّ كثيراً من سيل الحلّ يدخل الحرم مثل وادي عرنة ووادي نعمان وغيرهما، وقد شاهدها المؤرخ ابن دهيش، وذكرها في مواضعها.

١٤) إنّ الحدّ الشمالي ينتقل من (ريع الرحا) غرباً إلى (ريع المصانيع) ثمّ غرباً إلى (ريع الغُمَيْر) ثمّ جنوباً إلى (ريع المُرَيْر)، وما بين (ريع رحا) و (ريع المُرَيْر) أحد عشر كيلومتراً تقريباً. وهذا كلّه خطأ ـ كما يقوله المؤلف ـ استقرّ في أذهان بعض

الفضلاء المهتمين بهذا الأمر في سير الحدّ الشمالي من (ريع رحا) إلى (ريع المُـرَيْر). ويحيل المؤلف سبب هذا الخطأ إلى مَن دلّ هؤلاء المهتمين على مواضع الحدّ.

أمّا الصحيح فهو ما وضحته هذه الدراسة كنتيجة من نتائجها، التي توصلت إليها. فمسار الحدّ الصحيح، هو بعد (ريع رحا) ينتقل إلى (جبل الرضيعة) غرباً، ثمّ إلى (جبل أم القُزاز) شرقاً، ثمّ إلى (جبل أم الشُـبْرُم) شرقاً، ثمّ إلى (ريـع المُـرَير) غرباً.

وقد عثر المؤلف على مئة وسبعين علماً منبثة عـلى هـذه الجـبال الثـلاثة، وعليها آثار النورة البيضاء القديمة، بـينما لا يـوجد عـلم واحـد، لا عـلى (ريـع المصانيع)، ولا على (ريع الغُمير)، ولا على الجبال المحيطة بها.

هذا وقد ردّ الدكتور ما توهمه بعض الفضلاء من أنّ حدود الحرم تبنى عـلى المسامتة قياساً على المواقيت، بقوله: إنّ المواقيت ورد فيها نصّ بالمسامتة... أمّا حدود الحرم، فلا يحتاج فيها إلى المسامتة؛ لوجود الأعـلام القـائمة فـيها بجـميع الجهات.

١٥) من الأخطاء التي صححتها هذه الدراسة خطأ آخـر اسـتقرّ أيـضاً في أذهان بعض المهتمين بهذا الأمر وهو سير الحدّ الغربي من جـبال (النُـغيرات) أو (الحِشفان) إلى جبل (الدومة الحمراء). فعندهم أنّ الحـدّ بـعد جـبال (النـغيرات) يأخذ بالاتجاه جنوباً حتى يعبر (طريق الليث) إلى (جبال الموشّحات) حتى يحاذي أرض (أم هشيم) ثمّ بعد ذلك يأخذ بالانحراف شرقاً ليخترق (أم هشيم) حتى يصل جبل (الدومة الحمراء).

ويوعز المؤلف هذا الخطأ كسابقه إلى الدليل أيضاً، ثمّ يرسم المسار الصحيح للحدّ بقوله: إنّ الحدّ بعد (النغيرات) ينحرف نحـو الشمال الشرقي قبل وصـوله إلى طريق الليث بنصف كيلومتر، يسير بين المقرَح والرصيفة، يميل قليلاً إلى الرصيفة حتى يتصل بالرأس الجنوبي لجبل (الدومة السوداء)، ثمّ يسير الحدّ على (الدومـة

السوداء) جنوباً حتى يقطع (طريق الليث)؛ ليصل إلى (جبل نُعيلة) القريب من حجز السيارات على طريق الليث، وبعد جبل (نُعيلة) يتجه شرقاً، ليصل إلى جبل (الدومة الحمراء).

هذا وقد وجد الدكتور في مساره الصحيح هذا أربعين علماً تقع بين جبلي النغيرات والدومة الحمراء، وكاد الوهم المستقرّ في أذهان المهتمين أن يلغيها كلّها كما يصرّح به.

إذن فهذه هي أهم نتائج البحوث التي أجراها ابن دهيش في رحلته الميدانية. وقد سجّلها في كتابه هذا الذي بين أيدينا كدراسة ميدانية، تتصف بالفرادة في اختصاصها.

وأنّ القارئ يجد في ثنايا هذا الكتاب استنتاجات وتنبيهات لا أظنها تخفى على القارئ الكريم، والتي تعين القارئ على معرفة ما بذله الدكتور من جهود بدنية وأُخرى نفسية وثالثة فكرية في سبيل إنجاز مشروعه الكبير هذا.

▣ **الاقتراحات**: وتحت عنوان آخر سمّاه (الاقتراحات) راح الدكتور يسجل لنا أهم ما يراه من اقتراحات وتوصيات بشأن حدود الحرم الشريف وأعلامه، وقد دوّنها في سبع فقرات:

١) نصب أعلام طريق جدّة السريع، على أن توضع على رأس (ريع الحمار)؛ لأنّها توضع على رؤوس الثنايا لا على مسايلها.

٢) وضع أعلام طريق الطائف السريع (طريق الهدة) بين جبلي عارض الحصن وقرن العابدية.

٣) وضع أعلام الليث بين جبلي الدومة السوداء وجبل نُعلية.

٤) التحقق من الموضع الصحيح لأعلام طريق الطائف السريع (طريق السيل) وهي (أعلام المجاهدين) بمراجعة السجلات والوثائق القديمة وكبار السن الذين أدركوا بناء هذه الأعلام. وهل وضعت هذه الأعلام في موضع الأعلام

القديمة؟ فإن كانت في موضع الأعلام القديمة تركت بمكانها، وإلّا هدمت ويجب إعادتها إلى رأس (ثنية خلّ الصفاح). فنصوص الأزرقي والفاكهي وغيرهما تثبت أنّ حدّ الحرم من هذه الجهة هو (ثنية خلّ الصفاح) في طرف جبل (المقطع) وهذه الثنية معروفة اليوم وأعلامها قديمة لا زالت فيها، وهي تبعد عن الأعلام القائمة خمسمائة متر غرباً، فلماذا أخّرت هذه الأعلام عن رأس الثنية؟ الأمر يحتاج إلى تحقيق ورجوع إلى كبار السن.

٥) ومن اقتراحاته أيضاً، إعادة بناء جميع الأعلام المهدّمة، التي كانت قائمة على رؤوس الجبال والثنايا والمرتفعات، بناءً محكماً، مع الكتابة على كل علم عبارة تفيد أنّ هذا حدّ الحرم، واسم الآمر بالبناء، وتأريخ البناء، وأن يقام كل علم إلى جنب العلم السابق المنهدم الذي يبقى على حاله...

٦) يوصي أيضاً بإنشاء دائرة خاصة لشؤون حدود الحرم الشريف، تضم أفراداً من أهل العلم والمعرفة بكل ما يتعلّق بحدود الحرم؛ لمتابعة أعلام الحرم وصيانتها وحمايتها من العبث والتلف.

٧) تقرير فصل من فصول الجغرافية في المرحلة الدراسية المتوسطة أو الثانوية، موضوعه (حدود الحرم الشريف)، يدرسها الطلاب نظرياً وميدانياً...[1]

● ومن وصاياه الأُخرى، التي راح يضيفها الى كلّ ما قيّده من معلومات، وما بوّبه من مباحث، وما ذكره من ملاحظات، عبر رحلته هذه، التي تعدّ الدراسة الأُولى في هذا الجانب، وقد أراد بها أن تكون خاتمة خير بين أيدي المهتمين والباحثين من أصحاب الدراسات الميدانية المنهجية العميقة.

فمن هذه الوصايا أنّ الأعلام نفسها يمكن أن تجيب عن كثير من الأسئلة، التي

(١) أُنظر الصفحتين ٣٦٠ـ٣٦٢.

تعرض للقراء والمتابعين، فيوصي بزيادة البحث عن الأعلام وعن النورة حولها، فالنورة تختلف لوناً وشكلاً من عَلم إلى عَلم، أو من جبل إلى جبل، فإذا ما حلّلت تحليلاً دقيقاً، تحصل منها معلومات أُخرى.

وكذلك يوصي بتصوير جبال حدود الحرم وثناياه تصويراً تلفزيونياً، فهو ضروري لنشر كثير من العلوم.

ويوصي أيضاً بضبط القياسات والمسافات بين مواضع حدود الحرم ودراسة حجارة الجبال وصفاً وتركيباً وشكلاً ولوناً، ومعرفة الكيفية التي بها تمّ بناء هذه الأعلام بالصخر المنحوت والنورة، وأين هي مصانع النورة التي كانت تزوّدهم بالنورة. وما هو الطاقم المهيئ لهذا العمل الشاق جدّاً؟ فهذا كلّه يحتاج إلى جهد علمي لدراسته، وبالاستعانة بأجهزة علمية دقيقة تجعل البحوث أكثر دقّة واطمئناناً في نتائجها...

إذن فالبحث غزير ومتّسع، لابدّ له من لجنة علمية تقوم به، تضمّ بين صفوفها المحلّل الخبري، والطيّار والمصوّر ورسّام الخرائط والخطّاط والمسّاح والجيولوجي والمؤرّخ...

ولهذا يتمنّى المؤلف أن تلتفت المؤسسات العلمية إلى هذا الأمر وتوليه بعض عنايتها، لأهميته الكبيرة.

ولهذا يؤكّد أنّ جهده هذه جهد فردي يضعه بين أيدي العلماء والباحثين، ولا يعتبر ما توصّل إليه شيئاً نهائياً وهو عمل يتّصف بالدقة والأمانة العلمية حقاً.

ومع أنّه يعدّ جهداً فردياً، إلّا أنّه أتى بثمارٍ نافعة وفوائد جمّة، وقطعاً لو كان جهداً مؤسساتياً لكان أكثر نفعاً وفائدةً وأكثر عطاءً.

ويضمّ هذا الباب أيضاً ملحقاً للخرائط، وعددها ثلاث وأربعون خارطة للجبال والثنايا والأعلام، تتمدّد على الصفحات ٣٦٧ حتى ٤٠٨ مع خارطة كبيرة مستقلة تحت عنوان (حدود وأعلام الحرم المكّي الشريف).

ثمّ يبدأ بعدها ملحق الصور المـلوّنة وعددها أربع وستون صـورة للأعـلام والرضوم، وهناك صور للمؤلف وهو ينتقل من جبل إلى جبل باحثاً عن الأعلام وبعض مواقع حدود الحرم، وصورة لبعض فريق البحث، وهم يتجوّلون لتحري النورة بين حجارة الجبل في منطقة المشيطية.

❊ ❊ ❊

شُكر دائم ودعوة مخلصة!

وختاماً، ها أنذا قد انتهيتُ من تعريف كتاب الحرم المكّي الشريف والأعلام المحطية به، للدكتور عبد الملك بن دهيش، ومما أتمناه أن أكون قد وفّقت في عملي هذا، وإلّا فإنّي ألتمس العذر من الدكتور ومن اخوتي المهتمّين بهذه البحوث ومـن القُرّاء جميعاً، سائلاً المولى تعالى أن يمنّ علينا جميعاً بالتوفيق لمـزيد مـن الجـهود العلمية النافعة، ولا يسعني إلّا أن أخصّ الشيخ ابن دهيش بالشكر والثناء على ما تفضّلت به يداه من جهد علمي وعملي ثمين ومـبارك، وليس هـذا الجـهد مـثيراً للغرابة والعجب، بعد أن عوّدنا مؤرّخو هذه البلاد الطيبة أبناء الحرمين الشريفين على عطاءٍ وفير وجهد فريد فيما كتبوه وأرّخوه من أمثال المرحوم الشيخ حمد بـن جاسر، والشيخ عاتق بن غيث البلادي والشيخ عبدالرحمن خويلد... وغيرهم. وكان لهم حضور مبارك في مجلتنا هذه.

هذا وأرجو أن يسمحوا لي أن أبثّهم بما يختلج في صدري من زمن بعيد، وهو أنّي لم أجد ـ وطيلة هذه المدّة بالذات، التي واكبت فيها مجلة ميقات الحج محرراً، وهي المختصّة بالحج وبلاد الحرمين الشريفين وما يتعلّق بهما ـ فيما ألّفوه على كثرته وسعته شيئاً يذكر عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام أئمةً وعلماء وآثاراً، وكأنّ الأقلام قد جفّت، والأفكار قد نضبت، والجهود قد كلّت عن التعرّض لتاريخهم ومـواقـفهم الجليلة في خدمة الإسلام والمسلمين، ومعارفهم الحافلة بألوان من العـلوم فـقهاً

وتفسيراً وآداباً... وعلى عظمتها وثرائها، ولما تعرّضوا له من ظلم وتعسف، انصبّ عليهم وعلى اتباعهم.. وحتّى أنّي لم أعثر على إشارة أو إرجاع فضلاً عن التعريف بعلماء هذه المدرسة المباركة وبمؤلّفاتهم وكتبهم، على كثرتهم وغزارة إنتاجهم وكثرته وعمقه... متمنّياً أن لا يكون ذلك تغييباً لدورهم فهو أمر أربأ بأصحاب الكلمة المنصفة والفكر الواعي والقلم النزيه أن يتلبّسوا به.

إنّها دعوة صادقة مخلصة، ولا ريب في أنّها نافعة في الدنيا والآخرة بما فيها من تطييب القلوب وتقريبها، ولما فيها من وفاء لرسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والصالحين والشهداء... وهو بالتالي ما يجعل علمنا وأقلامنا في خدمة قرآننا العظيم وديننا الخالد وأمّتنا المجيدة ونصرة رجالها ورموزها، وينأى بنا وبأفكارنا وأقلامنا عن الانغلاق والتعصب وخذلان الحقّ، والحقيقة، التي يجب أن تبقى ضالّة المؤمن أينما وجدها التقطها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين